الباب الثامن

فى حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ من هو لجرعة الفضل أحسن حاسن : فلما وعى الملك الجليل ، والقيل الفضيل ما جرى بين الأسد والفيل ، من القال والقيل ، وانجرار ذلك إلى الضرب الوبيل ، وعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، وخاتمة التعدى والطمع مشومة ، أمر رؤساء المملكة وزعماء السلطنة بالكف عن الطمع ، وتجنب الجبن والهلع ، ومعاملة الأهل والجار بحسن الخلق والجوار ، وانتشار ذلك بالإشهار فى الولايات والأقطار فالعاقل من اعتبر بغيره ، وكفَّ كفَّه عن أذاه وضيره ، ونشر مهما استطاع من موائد إحسانه وخيره ، وعدى عن التعدى والعدوان لا سيما إذا كان ذا قدرة وإمكان ، وتحكم فى الفقراء والضعفاء والسلطان .

فنهض الحكيم حسيب ، وقبل أرض العبودية بشفاه التأديب .

[٦٨] **وقال** : بلغنى أيها الملك المفضال مما يطابق هذه الأحوال ، أنه كان فى بعض الأزمان ، وأنزه الأسكان سلطان الحيوان ، أسد عظيم الخلقة جسيم الشفقه ، جليل المكارم ، سليل الأكارم ، قد بلغ فى الزهد الغاية ، وفى الورع والعفة النهاية ، مع حسن الأوصاف والشمائل وكرم الأعطاف والفضائل، قد جمع بين الهيبة والشفقة ، والصدق والصدقة ، وسورة الملك وسيرة العدل ، وسيمة الفضل وشيمة الفضل ، هيبته ممزوجة بالرأفه ، وعاطفته مدموجة فى الصولة ، قد عاهد الرحمن بالكف عن أذى الحيوان ، وأن لا يريق دما ، ولا يتناول دسما ، ولا يرتكب محرما ، يقوت بنبات القفار ويقوم الليل ويصوم النهار ، يرعى فى دولته الذئب مع الغنم ، وينام فى كنف ضمانه وكفالة مأمنه الثعلب والأرنب ، بعد حَرّ الحرب والحرب فى ظل الضال والسَّلْم كما قيل :

وَلِىَ البريَّة عدْله فتمازَجَتْ ... أضدادها من كَثْرَةِ الإيناس

تَحْنُو على ابن المَاء أمُّ الصَّقْر بَلْ ... يحْمِى أخو القَصْبَاء أختَ كُنَاس[1]

(١) القصباء : عيدان القصب الكثيرة المتجمعة تخفى داخلها الحيوانات المفترسة ، والكناس هو بيت الظبى .

وفى جواره دوحة كثيرة الثمار غزيرة الأنهار ، نضيرة الأزهار ، رائقة الماء والكلا، فائقة النشو والنما ، شائقة النَّشْر[1] والهوى ، رياحينها طرية ومروجها بهية ومقاصفها شهية ، فكان الأسد ذو الزهادة إذا أطال اجتهاده ، وأراد أن يريح نفسه من مشاق العبادة ، يتوجه إلى ذلك الروض الأريض ، والمرج البهى الغريض ، والمرعى الطويل العريض ، فيتنزه فى نواحيه ويسرح سوائم طرفه فيه ، ويشغل صادح لسانه وتسبيح خالقه ومنشيه.

فبينما هو فى بعض الأوقات يتمشى فى تلك الخضروات ، صادف دُبًّا عظيم الجسم مليح الوسم ، فقبل الأرض بين يديه ، وذكر أنه أقبل لينتمى إليه، وأنه قد سمع بأوصاف عدله ومكارم شيمه وفضله ، فقصده ليتشبث بأذياله وينتظم فى سلك خيله ورجاله ، ويزجى فى خدمته باقى عمره ممتثلا ، بارز مرسومه ونافذ أمره ، فتلقاه بالقبول والإقبال ، وشمله بالفضل والإفضال ، وقال له : طِبْ : نفسا وقَرَّ عينا ، لقيت زينا ووُقيت شَيْنا ، فانتظم فى سلك خدمه وانغمر فى بحر كرمه ، واشترط عليه أن يحتمى عن لحوم الحيوان ، ولا يتعرض لإيذاء طائر ولا إنسان ، فامتثل ذلك بالسمع والطاعة وسار على سنن السنة والجماعة .

ثم بعد مدة يسيره قصد الأسد مسيره ، وخرج يسير على باكر وحوله طائفة من العساكر ، فلقى جملاً ضل الطريق وتاه عن الصاحب والصديق ، ونسيه الجمَّال وتركه الرفيق ، فبادر إليه جماعة الأسد وهموا بتبضيعه[2] بالناب واليد ، فإنهم كانوا لشدة القرم ، أُلْهِبَتْ أحشاؤهم بالضرم ، فناداهم الأسد : ويلكم كفوا وعن التعرض إلى إيذائه عِفُّوا ، لئلا يصيبه من الكيد ما أصاب صاحب كسرى ذى الأيد ، من كسرى لما خرج صباحا إلى الصيد ، فقبل الجماعة الرُّغام[3] وسألوا الإمام عن بيان ذلك الكلام .

---

(١) أى أشجارها شائقة ، ذات أوراق كثيرة منبسطة .

(٢) أى تقطيعه وتمزيقه .

(٣) الرغام : التراب ، والمعنى : قبلوا الأرض بين يديه .

[٦٩] فقال : ذُكِرَ أن كسرى أراد يوما الاصطياد ، فركب فى جماعته وأهل طاعته ، وسار على الصباح وهو فى نشاط ومراح وانبساط وانشراح، فصادف رجلا كريه المنظر مشوه الخلقة أعور ، فتشاءم بطلعته وتعوذ من رؤيته ، وتطير من صباحه وتكدر صفو انشراحه ، ثم أمر به فَضُرِبَ ، ولولا تداركته الشفاعة لصُلِبَ ، ثم تركه وسار نحو صيد القفار ، فحاش الصيد واقتنصه من عسكره عمرو وزيد ، ورجع مسرورا فرحا محبورا ، وأدركه المساء فصادف ذلك الرجل ملتفا بكساء ، وكان ذا لب صحيح وعقل رجيح ، ولسان فصيح ، فأبدى كَسْراً ونادى كسرى واستوقفه ، بعدما استلطفه .

وقال : أيها الملك العادل والمالك الفاضل ، أسألك بالله الذى ملَّكك رقاب الأمم ، وحكمك فى طوائف العرب والعجم ، أنعم علىّ برد الجواب وبين لى الخطأ من الصواب ، فإنك عادل حكيم فاضل كريم ، فوقف بعسكره واستنصت لخبره ، وقال : هات مقالك وقل ما بدا لك ، فقال : يا ملك ذا الأيد كيف كانت أحوالك اليوم فى الصيد ، فقال : على أتم ما نريد ، لقد حصله السادات والعبيد ، فقال : هل حصل فى أمور السلطنة وهن أو خلل ، أو فى الخزائن المعمورة نقص وقلل ؟ قال : لا بل أحوال السلطنة مستقيمة ودَيم الخزائن دارَّة مقيمة ، قال : فهل ورد اليوم من الأطراف خبر يؤذن بتشويش واختلاف ، قال : لا ؛ بل الجوانب مطمئنة والثغور من الأعداء والمخالف مستكنة ، قال : فهل أصاب أحدا من الخدم والأصحاب والخَوَل[1] والحشم مصاب ، قال : بل كلهم بخير ، آمنون من الضرر والضير ، قال : فلم ضربتنى وأهنتنى ، وعلام كسرتنى وطردتنى، قال : لأن التصبح بك مشوم وهذا أمر مشهور معلوم ، قال : سألتك بالله الذى تتقلب فى مواهبه أينا كان أشأم على صاحبه ؟ أنا تصبحت بك وأنت تصبحت بى ، فأنت أصبت الذى

---

(١) الخدام .

ذكرت ، وقد علمت ما حل بى ومع هذا فإنما عِبْتَ وعَتَبْتَ على الصانع ، وذهلت عما أودعه فىَّ من أسرار وبدائع ، فإنه لا اختيار لى فيما فطرنى عليه ولا مدافع ، ولا حيلة فيما قدره على ولا ممانع ، واسمع ما قلت بعدما وصلت فى إهانتى وجلت :

لَقَدْ كَانَ قصدِى أنْ أسُودَ على الورى — بقدٍّ وطرْفٍ كامِلِ الخلق بارع
ووجْهٍ يفوقُ البَدْرَ والشمسَ بهجةً — فعاكَسَنِى تقديرُ رَبِّى وصانِعِى

ثم خطر بالبال هذا المقال قلت :

ودَدَتُّ لو أنى أحسنُ الخلقَ صورةً — وأكمل من بدر السما وهو طالعُ
فأبْدعَنَى نَقْشُ المصورِّ هكذا — ولا صَنَعَ لى فيما بِى الله صانعُ

فتنبه كسرى لكلامه ، وأمر بإعزازه وإكرامه ، وتدارك ما فرط منه بإحسانه وإنعامه .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لئلا يكون هذا الجمل مثل ذلك الرجل ، لأنه قد تَصبَّح بى فلا يرى أبدا مكروها بسببى ، بل يرى الخير ويكفى أذى الغير، وكذلك كل من هو عندى ومنسوب إلى من خَوَلِى وجُنْدى ، ثم عَادَ ذلك البعير وسأله عن جليل أمره والحقير ، فأخبره أنه تاه عن أصحابه ، وأنه من بعد يتعلق بغرز ركابه[1] ولا صنع لى فيما بى الله صانع ، ويلازم خدمة بابه كأصحابه ، فأكرم مثواه وأحسن متبوأه ومأواه ، إلى أن صار من أكبر الخدم، وذا خول وحشم ، ورأس الندماء ورئيس الجلساء ، وأمن النكد والبوس ، وسمن حتى صار كالعروس ، فحسده الدب لعدم اللُّب ، وعزم بمكره على إلقائه فى الجب ، واشتد بذلك البَرَم[2] إلى أكل لحم الجمل القرم ، فأخذ

(١) الغَرْز : ركاب الرحل من الجلد ، والمعنى : يتمسك به .
(٢) اللئيم .

يضرب فى ذلك أخماس الأسداس ، واحتوشه فى قضيتـه لسوء طويتـه القلق والوسواس ، فلم ير أوفق من إفساد صورته وإظهار سوء سريرته ، فيهلكه ويكيده ويفتنه ويبيده ، فيصل منه إلى ما يريده ويثمر بمكره الحسد ، ويصلح من شرهه ما فسد ، ويروج منه ما كسد ، فأدى فكره إلى أن يغرى بـه الأسد فاختلى بالجمل وابتدأ بالعمل .

وقال له : لى معك كلام على كتمه منك ألام ، ولكنك لست موضعا للسر لأنك لا تعرف هرا من بر[1] ، وأنت ساذج ساكن سليم الفكر والباطن ، وقد قيل : الحماقة فى الطويل ، ولولا وفور شفقتى وحنوى عليك ومودتى ما فهت لك بكلمة ، ولتركتك من التيه فى ظلمة ، وقالت الحكماء ذوو المعارف لا تُفْشِ سرك إلى طوائف منها سليم الفطرة ، ومنها مدمن الخمرة ، ومنها الكثير الكلام ومنها المرأة والغلام ، فإنهم ليسوا محل الأسرار وأنهم يغشونها بلا اختيار ، وقد قيل : كم انسان أهلكه اللسان ، وكم حرف أدى إلى حتف .

قال الجمل وقد أثر فيه مكره ودخل : يا أخى أنا أتحقق شفقتك ، وصدقك وصداقتك ، وأعرف محبتك ، ونصحك ومودتك ، وأنت لا تحتاج فى تجربتى إلى دليل ، فلى فى صحبتك زمان كَقَدِّى طويل ، وأنا أؤكد قولى بالإيمان واعقِدُ على ما تلقيه إلىَّ الجنان ، ولا أتفوه به لجماد ولا حيوان ، والشخص إذا لم يعرف منه ما يراد ، فلا فرق بينه وبين الجماد ، واذكر ما قلت لك فى درب ابن تلك :

ومَنْ كان ذا عين ولا يبصرُ الذى أمامَه فهذا والضَّريرُ سواءُ
وذو الجهلِ خيرٌ من عقولِ علومِه سراجٌ ولكن ليسَ فيه ضياءُ

ثم أنشأ أيْمانا أغلاظا أنه يبالغ فيما يسمع منه احتفاظا ، ولا يبدى منه

---

(١) أى أنه لا يميز فعل من يهر فى وجهه أى يعبس ، من فعل من يبر به .

لاما ولا فاء ولا ظاء . فلما وقف الدب على جوابه ، وربطه بزمام تدبيره اختلى به وقال : تعلم أيها الصديق المبين ، أن ملكنا فى غاية العفة والدين، وأعلى درجات العباد والزاهدين ، قد فطم نفسه عن الطعوم ؛ خصوصا عن الدماء واللحوم ، ولكنه فى ذلك كله غير معصوم ، فإنه قد تربى بلحم الحيوان، وتغذى بافتراس الأقران ، وتعود رضع الدماء وقطعت سرته على هذا الغذاء ، وتزهده إنما هو تكلف وتعسف وتصلف ، وتعففه مكابرة ، وتورعه مصابرة ، ولابد للنفس أن تفعل خاصيتها ، وتجذب شهواتها إليها ناصيتها ، وتطمح إلى مأرزها[1] وتجمح إلى مركزها ، وقال الله تعالى ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٠] . وإذا كان ذلك كذلك فاحتفظ لنفسك واحفظ نصيحتى وامسك ، وتفكر أحوال غدك فى أمسك ، فإنك فى صحبة الأسد على خطر عظيم ، وخطب جسيم ، فلا تغفل عما قلت لك ، ولا تظنن انه لن يقتلك .

فداخل الجمل من هذا الكلام الخَوَر ، ولم يبق له طاقة ولا مصطبر ، ثم ثبته التوفيق ، وتخلل فى هذا الأمر الجليل فكره الدقيق ، واستحضر رأيه فى أمره وأجال قداح فكره ، وقال للدب المشؤم : يا أخى ، فأى ضرورة دعت الأسد الغشوم حتى تعفف عن أكل اللحوم ؟ قال : أنا لا أشك فى دينه ولا أرتاب فى حسن يقينه ، ولكن ربما تعود المياه إلى مجاريها ، وتعطى القوس باريها ، وتتحرك النفس الأبية والشهوة التى طالما ألقت صاحبها فى بلية ؛ لأن الإنسان ، بل سائر الحيوان على ما يقتضيه الكون والمكان ، دائر مع اختلاف أخلاق الزمان ، فإن الزمان كالوعاء والشخص فيه كالماء ، فيعطيه من أخلاقه ما يقتضيه من كدره وصفاءه ، ولهذا قيل : لون الماء لون إنائه ، وقد قيل : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وناهيك يا ذا الكرامات

---

(١) مطلبها .

ما قيل فى المقامات :

ولما تَعامَى الدَّهرُ وهو أبو الوَرَى عن الرشدِ فى أنحائهِ ومقاصِـــدهُ
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيل أَنِّى أخـــو عَمَى ولا غَرْوَ أَنْ يَحْذُو الفَتَى حَذْوَ والِدُه

والأسد فى هذا الأوان ماش على ما يقتضيه الزمان ، وإن الزمان يتحول وسيرجع الأسد إلى خلقه الأول ، أما بلغك يا ذا الفطنة الحية قصة الحائك مع الحية : قال لا ورب البرية ، فأخبرنى عن كيفية تلك القضية .

[٧٠] **قال الدب الأفاك** : ذُكِر أن حائكا من الحُيَّاك كانت له زوجة؛ تخجل شمس الأفلاك صورتها مليحة وسيرتها قبيحة ، فشم زوجها روائح ما هى عليه من القبائح ، وخاف أن يؤدى إلى الفضيحة، فطلب تحقيق ذلك ليوصلها إلى المهالك ، فقال لها : أريد ضيعة لأجل بيعة ، فأغيب أياما يسيرة لفائدة كثيرة ، فارصدى بابك وأسدلى حجابك ، واحفظى من الشر جَنَابك ، فقالت : بيتٌ أنت رئيسه ومثلى قعيدته وعروسه ، أَنَّى يحوم حوله فساد، فأدرك سوقك قبل الكساد ، وجهزته أسرع جهاز كالمتوجه إلى الحجاز ، فسافر من غير مرية ثم رجع إلى البيت فى خفية واختبأ تحت السرير ، لينظر ما يجرى من الأمور ، فبادرت إلى النار ونفخت وأسرعت إلى الطعام وطبخت ، وخرجت تدعو مرامها وقد هيأت طعامها ، فخرج زوجها من المخبأ وأتى على الطعام المهيأ ، ورجع إلى مكانه ونام بعد أكله الطعام ، فجاءت المرأة بحريفها ، وقصدت الطعام لمضيفها فصادفت يدها الحصير ، فعرفت أن البلاء تحت السرير ، فأخذت تطلب المخلص من ذلك المقنص ، واتفق أن الملك رأى مناما هاله ولكن نسى هيئته وحاله ، فقصد من يخبره برؤياه ويعبرها له ، فنادى فى الورى يطلب لمنامه مخبِّرا ومعبِّرا ، وبينما تلك الفاجرة على حيلة الخلاص دائرة ، وفى بحر الأفكار حائرة ، سمعت المنادى ينادى فى كل نادى ، من يدل الملك الهمام على معبِّر المنام ، فله

مزيد الإكرام والإنعام العام ، فسارعت المرأة إلى باب الأمير ، وقالت : قد سقطت على الخبير ، إن لى زوجا حكيما ، بتعبير المنامات عليما لكنه يتعزز وعن تعبيرها يتحرز ، فلا يفوه بالتعبير إلا بعد ضرب كثير ، وأنه ليس له فى ذلك نظير ، فأرسل وراءه وأكرم لقاءه ، ثم قالت له : بعد إكرام أو صله ، ووعده بإنعام وصله ، رأيت مناما راعنى ، وفى الحيرة والفكر أضاعنى ، فدع عنك الاحتشام وأخبرنى عن ذلك المنام ، ثم عبره لى فقد أُخْبِرْتُ أنك حبيب لله ولىٌ .

فقال : يا مولانا الملك أنا فى الجهل منهمك ، حائك فقير ليس لى من العلم نقير[1] ولقد كذب علىّ من نسب العلم إلىّ ، والعين تعرف العين أنا من أين ، وتعبير الرؤيا من أين ، فما صدقه ولا فى كلامه استوثقه ، وصدق قول المرأة فيه ، وأمر بإيصاله ما ينكيه ، ثم طلب المقارع وشدوا منه الأكارع ، وضربوه ضربا أعسفه ، إلى أن كاد أن يتلفه ، فنادَى : الأمان الأمان أمهلنى ثلاثة أيام من الزمان ، فتركوه وأمهلوه وقيده أطلقوه ، فصار يدور فى الخرائب ويتضرع تضرع النائب ، ففى ثالث الأيام ، وقد أيقن بحلول الحِمَام دخل إلى مكان خراب ، وأخذ فى البكاء والانتحاب ، فنادته حية من الشقوق ما لك تنتحب يا ذا العقوق ؟ فأخبرها بحاله وما جرى عليه من نكاله ، فقالت: ماذا تجعل لى من الإنعام إذا أخبرتك بما رآه الملك فى المنام ، ثم فضضت عن تعبيره مسك الختام ، قال : أكون لك عبدا وصيفا ، وأعطيك مما أعطى نصيفا ، قالت : إن الملك رأى فى منامه أن الجو يمطر من غمامه ، أسودا ونمورا وفهودا وببور ، وأن السماء فى ذلك تمور وتعبير هذا المنام ، والله العلام : أنه يظهر فى هذا العام للملك أعداء كواسر ، وحساد جواسر ، يقصدون هلكه ويريدون ملكه ، وسيطفئ نار كيدهم بمياه سيوفه ، ويسقيهم من رحيق فتوحه كاسات حتوفه ، فكشفت غمته .

---

(١) أى فقير جداً فى هذا العلم .

ثم أصلح لباسه وعمته ، وقصد باب الملك ، ونادى غير مرتبك وذكر المنام وعبره ، ووعد السلطان بالنصر وبشره ، فتذكر المنام وحققه ، واعتمد عليه وصدقه ، وأمر له بألف دينار وصار له عند الملك بذلك اعتبار فأخذ الذهب مجبورا ، وانقلب إلى أهله مسرورا ، ثم افتكر ما اشترطه مع الحية ، فأبت عن الوفاء نفسه الشقية ، وخاف أن تطالبه بحصتها ، أو تفضحه بقصتها، فلم ير أوفق من قتلها وسد ذريعة سبلها ، فأخذ عصا ورام بذلك مخلصا ، وقصد مأواها ووقف فناداها ، فخرجت مسرعة إليه وأقبلت بالوداد عليه ، فرأت العصا بيمينه ، فعلمت أنه ناكث بيمينه ، فولت هاربه فضربها ضربة خائبة ، لكنه جرحها وعمد إلى نفسه ففضحها ، وتركها وذهب فائزا بالذهب .

فاتفق أن فى العام الثان رأى السلطان مناما أقلقه ، وعن نومه أرقه ، ومن شدة أهواله محاه الوهم عن لوح خياله ، فدعا المعبر المعهود إليه وقص حاله عليه ، وطلب منه صورة المنام وما يترتب عليه من كلام ، فاستمهله الأيام المعدودات ، وقصد رئيسة الحيات وناداها عجلا ، ووقف فى مقام الاعتذار خجلا ، فقالت : أى غدر كيف استحليت ما مضى من فعلك ومر ، بأى وجه تقابلنى وتخاطب ، وقد قصدت عَطْبى بعدما خلصتك من المعاطب ، وقابلت إحسانى بالسوء ، ولكن غدرك بك يبوء ، فقال : عفا الله عما سلف ، والصداقة بيننا من اليوم تؤتنف ، ثم أنشأ أيمانا أنه يبدل الإساءة إحسانا ، وأنه لايخون ولا يَمِيْنُ[1] ، فيما يقع عليه العهد واليمين ، بل يعود إلى العهود ، ومهما وقع عليه الاتفاق لايمازجه خُلْفٌ ولا نفاق ، فقالت : أريد جميع الجائزة لأكون بها فائزة ولها حائزة ، فأجابها إلى ما سألت وعاهدها على ذلك فقبلت ، وقالت : رأى الإمام فى هذا المنام ، أن السماء تمطر قردة وفيرانا ،

---

(١) يخدع .

وثعالب وجرذانا ، وتعبير هذه الرؤيا ، وكلمة الله هى العليا : إنه فى هذا العام والشهور والأيام ، يكثر اللصوص والعيارون[١] ، والمكرة والطرارون[٢] ، ويظهر فى العساكر كل حسود ماكر ، وشيطان داعر ، ولكن صولة الملك تمحقهم ، وصواعق سيوفه تصعقهم ، فأسرع إلى السلطان وخبره ، بما رآه فى منامه وعبره ، فقال: بالحق أتيت هذا الذى كنت رأيت ، ثم أمر له بجائزة سنية وخلعة بهية ، فصار فى عيشة مرضية وحياة هنية ، وسلك طريقته الدنية فلم يلتفت إلى عهوده القوية ، ونبذ عهد الحية الحبية[٣] ، وقال : يكفيها منى كفى عنها ، فلا تطلب منى ولا أطلب منها .

ثم إن السلطان رأى فى المنام فى ثالث الأعوام ، مناما آخر ونسيه، فأرسل إلى المعبر فغشيه من يم الهم ما غشيه وسأله عما رآه ، وطلب منه تعبير رؤياه ، فطلب المهلة كما كان وأحاط به موج الهم من كل مكان ، ولم يرَ بداً من معاودة الحية ، فأتاها وبه من الحياء كيّه[٤] ، وناداها بصوت خاشع، ووقف فى مقام الذليل الخاضع ، فخرجت فرأته فزجرته وزأرته ، وقالت : يا خائن يا كذاب ، يا ناقض العهد يا مرتاب ، يا قليل الحياء ، يا كثير البذاء ، يا صفيق الوجه ، يا حقيق النَّجْه[٥] ، ترى بأى لسان تخاطبنى وبأى وجه تقابلنى ، وقد ختلت وفتلت[٦] ، وفعلت فعلتك التى فعلت ، فقال : لم يبق للاعتذار مجال ، ولا للاستقالة مقال ، وما ثم طريق إلا معاملتك بالإفضال ، فأن أفضلت أتممت الإحسان ، وإن رددت فعذرك واضح البيان ،

---

(١) العَيَّار : الذى يتردد بلا عمل يخلى نفسه وهواها .

(٢) الطرّار : النشال ، الذى يطرّ الثياب أى يشقه ويقطعه ليسلب ما فيه .

(٣) المعطاءة .

(٤) أى حيرة لا يدرى كيف ينصرف .

(٥) النذل .

(٦) خدعت .

وهذه المرة الثالثة لا تكون يمينها حانثة ، ولا عهودها ناكثة ، وأشهد الله وكفى به شهيدا أنى بعد لا أنقض لك عهودا ، ولا أُحِل مما بيننا عقودا ، فقالت: لا أخبرك بشيء إلا أن تعهد إلى أن تعطينى جميع ما تعطى ، وتكف عما وقع منك من الخطا ، فسمع مقالها وأجاب سؤالها ، فقالت : رأى الملك فى منامه كأن الجو أمطر من غمامه ما ملأ الفضاء من خرافه وأغنامه ، وتعبير هذا المنام : أنه يكون فى هذا العام من الخيرات والأنعام ما يشمل الخاص والعام ، فتطيب الأوداء وتصالح الأعداء ، وتطيع العصاة ، وتذعن البغاة ، ويوافق المخالف ويكثر المحب والموالف ، فاحفظ ما قلت لك فقد حللت مشكلك .

فتوجه بصدر منشرح وخاطر مطمئن فرح ، وقص المنام وعبر فيه من الأحلام ، فطار الملك بالفرح وتم سروره وانشرح ، وأمر بالجوائز فصبت عليه ، وبالأموال فانهالت إليه ، فنعم بتلك العطية والخلع السنية .

وقصد وكر الحية ، ثم وقف وناداها وقدم إليها كل ذلك وأعطاها ، وشكر لها إحسانها وتحمل جميلها وامتنانها ، فقالت له الحية : اعلم يا أبلم[1] ، إنه لا عتب عليك ولا ملام ، فيما جنيته أولا من الآثام ، ولا ما ارتكبته من العداوة والمَيْن[2] فى العامين الأولين ، ولا فضل لك فى هذه السنة على ما فعلته من الحسنة، فإن دينك العامين ، كانا مشتملين على قِران النَحْسَيْن ، فكان مقتضى حالهما فساد الزمان والعداوة بين الأصدقاء والإخوان ، ووقوع البغضاء والشرور والحِنْث[3] والخِلْفُ وقول الزور ، فجريت على مقتضاهما حسب مرتضاهما ، والناس فى طباعهم وأيامهم أشبه بزمانهم منهم بآبائهم ،

---

(١) قبيح .

(٢) الكذب والخداع .

(٣) الكذب .

وهذا الأوان قد انصلح الزمان ، واستقام الطالع وزال الحسد والتقاطع ، واقتضى الزمان الصلح والصلاح والموافقة والفلاح ، فمشيت على موجبه ، وتشبثت بذيل مذهبه ، فخذ مالك وانصرف بارك الله لك فيه ، فلا حاجة لى به ولا يَدَّ لِى لتقليبه .

وإنما أوردت هذا المثل أيها الجمل ؛ لتعلم أن الزمان لتقلبه فى الدوران ، يوقع بين الأصحاب والإخوان ، ويباين بين الأصدقاء والخِلان ، والأسد المجتهد وإن كان قد زهد وترك من أخلاقه ما عهد ، فيمكن عوده إلى حاله الأولى ؛ فالاحتراز منه فى كل حال أولى، وها أنا قد أخبرتك ، ومن سوء العاقبة حذرتك ، وعلى ما وصل إليه فكرى أطلعتك ، وفرط محبتى وشفقتى عليك ؛ اقتضى إفشاء هذا السر إليك ، ومن أنذر فقد أعذر ، ومن بصر فما قصر .

قال الجمل : يا أخى فنترك هذا المقام ونروح ونخدم من فى خدمته نستريح ، قال الدب الجاحد : إذا كان هذا العابد الزاهد الراكع الساجد ، الذى قد تعفف عن أكل اللحوم ، وليس له دأب إلا إغاثة المظلوم ، قد عف عن الدماء وقنع بأكل الحشيش وشرب الماء لا تؤمن غائلته ، ولا تعتمد خائلته[1] فإلى أين نتحول وعلى من يكون المعول ، وأنّى نذهب وفيمن نرغب ، قال الجمل : فكيف يكون العمل فلقد ضاقت بنا الحيل وتقطعت بنا السبل ، لا طريق للمفر ولا قرار للمستقر .

فأفكر الدب طويلا ، ثم رأى رأيا وبيلا ، وقال : أرى الرأى السديد ، والفكر المفيد ، أن نبادر الأسد قبل وقوع النكد ، فنقصده بما يقصده ، ولا نوصله إلى ما يعتمده ، فالعاقل يفتكر فى عواقب الأمور ، ويقيس بفكره

---

(١) رعايته .

السرور والشرور، ويستعمل الحزم ، وإذا قصد أمر يصمم العزم ، وناهيك قضية الثعبان مع ذلك الإنسان ، قال الجمل أخبرني عن تلك القضية ، ومن ذلك الإنسان وما تلك الحية ؟ .

[٧١] قال أبو حميد الخبيث : بلغني من رواة الحديث ؛ أن شخصا من الصيادين كان مغرما بصيد الثعابين ، يتسبب بصيدها[١] ولا يبالي بكيدها ، فبينما هو يسعى إذ صادف أفعى ، شرها ناجز كما قال الراجز :

أَرْقَشُ ظمآنٍ متى عَضَّ لَفَظَ أَمَرَّ مِنْ صَبْرٍ ومَقِـرٍ وحَظَظ[٢]

وقد أثر فيه الحر بالحرق وهو نائم في مكان منطبق ، فاستبشر الحوّاء[٣] برؤيته وقبضه من عقصته[٤] ، فلم يفق الثعبان من رقدته ، إلا وهو من الحاوى فى قبضته ، فتماوت وامتد وارتخى فاسبل بعد ما كان اشتد ، فظن الصياد أنه مات ، وأن مراده منه فات ، فتحرق لذلك وتألم ، وتأسف عليه وتضرم ، وحرَّق عليه الأُرَّم[٥] ، ورماه من يده ، ثم دار في خلده أن فى بطنه خرزة بهية ، مشرقة مضية ، فأخرج الشفرة وقصده ، ومد لتبضيعه يده ؛ فلما تحقق الأرقم ما عزم عليه وصمم ، خدعه وختله وضربه فقتله .

وإنما ذكرت يا أبا أيوب هذا المثل المضروب ؛ لتتحقق أن المبادرة إلى إهلاك العدو أقر للعين وأجلب للهدو ، ومن فوت الفرصة وقع فى غصة وأى غصة ، وهذا الأسد إن غفلنا عن أنفسنا أبادها وقصد دمارها وفسادها ، ولا يفيدنا إذ ذاك الندم بعد ما زلت القدم ، وتحكم في وجودنا من مخالبه العدم .

---

(١) يترزق .
(٢) مقر : مر ، وحظظ : شر .
(٣) صائد الحيات والثعابين .
(٤) قرنه ، مقدمة رأسه .
(٥) الأُرَّم : الأضراس ، ويحرق عليه الأرم ، أى يحكها بعضها ببعض من غيظه .

فقال الجمل : اعلم أيها الرفيق الصديق الشفيق ، إن هذا الملك آوانا وأكرم مثوانا ، ولم نشاهد منه سوء ولا من ظلمة باطنه آنسنا ضوء ، ولو قصد أذانا ما وجد دافعا ولا ممانعا، وقد علمنا أنه ترك الأذى وكف عن الشر والبذا ، تعففا لا تخوفاً وتكرما لا تكلفا ، واختيار لا اضطرار ، وجبرا لكسرنا لا إجبارا ؛ وأما أنا على الخصوص فلم أر منه إلا الجميل ، والفضل الجزيل والإحسان العريض الطويل ، فلأى شيء أسرع فى أذى نفسى وأكدر صافى حدسى ، ولم يظهر لى منه أمارة لا بمقتضٍ ولا بدلالة ولا بإشارة ؛ فضلا عن سباق أو سياق بعبارة ، وأنا لو مت كمدا ما قصدته بأذى ولا رديته برداء ردى ، والصوفى ابن الوقت لا يتقيد بنكد ولا مقت ، فإن قصدنى بعد ذلك بشر أو تعرض لى بهلاك وضر ، لا يسعنى معه إلا التفويض والتسليم والتوكل على العزيز العليم ، مع أنى لا أقدر على مقاومته ولا قوة لى فى دفع مصادمته ، ولا طاقة لكسر أنيابه ومخاليبه ، ولا خلاص من أشراك أساليبه ، غير أنى وإن كنت منسوبا إلى التغفل ، لا أدع من يدى ذيل التوكل ، فبالتفويض يحصل النجاح ، وبالتوكل يظفر بالفلاح ، كما جرى لذلك الفلاح مع الذئب والشجاع حال التوكل على الله تعالى والانقطاع ؛ فسأل أبو سلمة إيضاح هذه الكلمة .

[٧٢] **قال أبو صابر** : بلغنى من أحد الأكابر أن شخصا فلاحا توجه إلى ضرورة صباحا ، من غير رفيق ولا حامل سلاحا ؛ فبينما هو فى البيداء سائر صادفه ذئب داعر ، خاتل خاتر ، فقصده ليكسره فنر وصعد إلى شجرة، فترصد نزوله وانتظره تحتها ليغوله ، فانعصر ، وحن ضرورته انحصر ، وبينما هو فى تلك البلية وقعت عينه على حية ردية ، ذات قرون صاعدة وهى على بعض الفروع راقدة ؛ فازداد همه وأحاط به لوهمه غمه ، فاستمر بين بليتين وانحصر فى ديوان داهيتين دَهْيَتَيْن ، فلم ير أوفق من التوكل

على الله والإعراض عما سواه ، فاعتمد متوكلا عليه وفوض أموره إليه ، وبينما هو تلك الشدة وقد بلغ ضَرُّه حده ، وإذا برجل مقبل من الفلا ، وعلى عاتقه عصا ، فقصده الذيب من قريب ، فلما رأى السلاح فر وله كلاح ، فنزل الفلاح من الشجرة ، وأزال الله تعالى همه وضرره .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم أن الله نعم المُتَّكَل ، فأخرج هذا الوسواس من القلب والرأس ، ولا تبك سلفا ولا تعجل تلفا ، ولا تخلع الحذاء يا ذا الرياضة قبل أن تصل إلى المخاضة ، ولا تهتم لأمر ما وقع ، فإن ذلك من شر البدع ، فإن قصدنا بسوء فالله يكافيه ويكفينا بحوله وقوته فيه .

قال الدب ذو الضرر : هذا رأى القاصر فى النظر ، العاجز فى الفكر ، فأما ذو الفكر الثاقب فلا يغفل عن العواقب ، فكل من قصر عن العواقب نظره ، ولم يسدد فى الأمور فكره ، فهو كمن تعلقت النار بأهدابه ، والتهبت لإحراق ثيابه ، وهو مشغول عن إطفائها متساهل فى كشف أنبائها ، فلم يفق إلا وقد نشبت وأعضاؤه بالنار التهبت ، فما تفيده الإفاقة وقد صار حراقه .

قال الجمل : يا أخى أفق من محالك وعالج فساد تصورك وخيالك وانظر قوة جلدك وكيفية حالك ، أنا لحمى من صدقات الأسد نبت ، وحبه فى دمى وعظمى ثبت ، كيف أجحد نعمه أو أريق دمه ، وأنا أغرس صدقاته وبنيان نفقاته ، ورفيق حضرته وعتيق منته. مع أنى لو نبذت عهده فقطعت ما قطعت وعزمت على مناوشته ما استطعت أما وعيت فى معانى ما رويت :

هِى العَنْقَاء تكبُرَ أن تصادا فَعَانِدْ مَنْ تطيقُ له عِنادا

تريد صيد العقاب بفرخ الغراب ، أم تقتنص الذئاب بجرو الكلاب ، وتبغى بالقرود كسر الفهود ، أم بالسنانير[1] تصيد الأسود ؛ ولا والله

---

(١) السنانير ، مفردها السنور : القط .

لا أقصده بأذى ولا يطاوعنى قلبى على ذلك أبدا ، ولو فعلت ذلك لسعيت فى دمارى وخراب ديارى ، وجدعت أنفى[1] بكفى وبحثت عن حتفى بظلفى[2] ، وجززت بيدى رأسى وقطعت قدمى بفأسى ، وقلعت بإصبعى مقلتى، واستحفظت ملك الموت مهجتى ، ولصرت من أكبر المعتدين وأفسدت دينى ودنياى والله لا يحب المفسدين ، فاطو عنى هذا الكلام وارجع عن مفاوضتى بسلام ، ولا تشكك به جنانك، ولا تحرك به لسانك .

وكان بالقرب منهما وكر فارة ، وقد سمعت ما جرى بينهما من عبارة ، ووعت كلامها وما دار بينهما من كل منهما ، فلما رأى الدب المريد أن كلامه للجمل لا يفيد ، أمسك واحتشم وأخذه فى ذلك الندم ، ولكن حال من الجمل الحال وأثر فيه هذا المقال ، واستولى عليه من الأوجال[3] ما أداه إلى الهزال، وصَيَّرَهُ من الانتحال كالخلال ، وذهب ما كان عليه من النشاط ، وداخله الهم والاختباط ، وصار كل يوم فى انحطاط ، ولم يزل بين نضو ورازح[4] ورازم ونازح[5] ، فتعجب الأسد من حاله ولم يقف على سبب هزاله .

وكان عند الأسد غراب مقدم على الأصحاب ، هو وزيره ومعتمده ، وصاحب أخباره وعضده ، فعرض عليه حال الجمل وما شاهده منه من وجل، وقال : أنا عففت عن أكل اللحوم ورضيت من العيش بأدنى الطعوم ، وهذا أمر قد عرف واستقر ، فما بال هذا الجمل لا يأخذه مقر ، فأريد أن تعرف حاله وتخبرنى صدقه ومحاله .

(١) قطعتها .
(٢) الظلف هو حافر الدابة .
(٣) الأوجال ، مفردها وجل : الخوف .
(٤) بين نضو ورازح : بين نشيط ومتعب .
(٥) رازم ونازح : ملازم لمكانه لا يبرحه ، وتارك لمكانه بعيداً عنه ، والمعنى : حاله غير مستقر كثير التغير .

فتوجه الغراب إلى منزل الجمل وقد أخلص فى القول والعمل ، وسأله عن حاله وموجب هزاله وانتحاله ، وما سبب هذا الرزوح والرزوم المؤدى إلى النزوح ، فما أحار جوابا ولا ذكر خطأ ولا صوابا ، فصار الغراب يرتقبه ، وحيثما توجه يعتقبه ، ففى بعض الأيام كان الغراب على بعض الآكام ، رأى الجمل قد أقبل إلى الماء ليطفئ بشربه سورة الظمأ ، فتخفى الغراب واقتفى ظهره إلى أن قاربه ، وكَمُنَ خلف صخرة ، فسمعه يقول بعد ما شرب ، وقد رأى السميكات فى اللعب : لك الحمد يارب ما أرحمك وطوبى لَكُنَّ يا سمك ، لا من رئيسكن تخفن ولا من هيبته ترجفن ، لا ملك يهولكن ولا سلطان يغولكن ، ولكن البكاء على الجمل الذى ضاقت به الحيل قد وقع فى دردور البلاء[1] ، ولا يهتدى إلى طريق النجاء ، بل ولا يدرى عاقبة أمره المهول إلى ماذا تؤل ، أإلى الغرق والندامة ، أم إلى النجاة والسلامة .

ثم أخذ فى الانتحاب إلى أن أبكى الغراب ، فلما رأى أبو القعقاع هذه الأوضاع ، قضى من الأمر العجاب ما يتشيب منه الغراب ، ثم توجه إلى أسد الشرى وعرض عليه ما جرى بتخيير المشترى ، فتشوش فكره وتشور أمره، وضاق بالهم صدره ، وقال : أنا كففت عن الشر والشره وعففت عن ذلك كأن لم يرنى ولم أره ، وتركت القَرْم والأذى ، وفطمت نفسى عن لذيذ الغذا ، ليأمننى أصحابى ويأنس بى أحبابى ، فإذا لم يستقر خاطرهم ولم تطمئن على محبتى سرائرهم ، أى فائدة لى فى الحياة ، وكيف أخلص فى حرم المودة من كدر العيش إلى صفاه . وكل ملك لا تصفو له رعيته ولا ترسخ فى قلوب جنده محبته ، كيف يثبت سلطانه أو يساعده عند الشدائد أعوانه ، أنا بذلت جهدى وطاقتى وتشبثت بأذيال الصلاح على قدر استطاعتى ولم يبق إلا

---

(١) الدُرْدُور : موضع فى البحر يجيش ماؤه فيخاف فيه الغرق . والمعنى مصيبة كبيرة .

التضرع ، والاستكانة والتخشع ، إلى مقلب القلوب ، وعلام الغيوب ليكشف هذه الغمة ويصلح لى هذه الأمة ، ويجلو عن جبين الحق بهيم[1] هذه الظلمة .

ثم تضرع إلى عالم الأسرار ليطلعه على حقيقة هذه الأخبار ، ثم أمر باجتماع جماعته المقيمين على محبته وطاعته ، وعرض عليهم هذه الأحوال وطلب منهم استكشاف ما فيها من الأهوال ، وقال : اعلموا أنى أمنتكم من مخافتى ، وبذلت لكم بدل عنفى لطافتى ، قد حققتكم مرامى وصدقتم كلامى ، وعرفتم أخلاقى وشذى أعلاقى[2] ، كل ذلك لتطيب خواطركم وتصفو لى سرائركم ، ولم أفعل ذلك عجزا ولا خورا ولا تهاونا ولا ضجرا ، وأنا الآن آمركم بواحدة هى أجلى فائدة ، أن لا تكتموا عنى شيئا تكرهونه منى ، بل أوقفونى عليه وأرشدونى إليه ، ثم اجهدوا أنى أمنعه عنى ، فإن فيكم أَجَلُّ محبوبى ، من أهدى إلى عيوبى ، وقد قال سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام اللهم أبلغه أفضل التحيات عنا : «من غشنا فليس منا»[3] .

وإنما أوردت هذا الكلام فى هذا المقام ؛ بحضور الخواص والعوام ، على سبيل التحذير والإعلام والتنذير ، وأقسم بالله العلى الكبير اللطيف الخبير ، الذى منه المبدأ وإليه المصير ، لم يكن فى خاطرى من أحد حقد ولا حسد ، ولا هجس بخاطرى له أيذاء ولا نكد ، وها أنا قد أخبرتكم وبإطلاعى أمرتكم ، فلم يبق لى ذنب يستغفر منه ولا لكم فى الإخفاء ما يعتذر عنه ، وإن الله تعالى لا يعذب بضلال الأسافل ، بل يهب للأعالى الأراذل ، فإذا

---

(١) شدة السواد .

(٢) الأعلاق : الجميل النفيس من كل شىء ، سمى كذلك لتعلق القلب به ، والمراد : حسن أخلاقى .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم : كتاب الإيمان (١٦٤) والترمذى : كتاب البيوع ، باب ما جاء فى كراهية الغش فى البيوع (١٣١٥) وقال : حسن صحيح .

فسد الراس تغيرت الناس ، فحل الباس ، ولقد قال خالق البرية وباريها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] فقام الحاضرون فى مقام العبودية والولاء ، وبسطوا ألسنتهم بأنواع الثناء والدعاء، ونادوا بكلمة واحدة متفقة متأكدة ، حاشا الله ما علمنا عليك من سو ، ولم تزل تُطَيِّبُ عِلَلَ تقصيرنا وتأسو[1] ، وتستر بذيل عفوك كل عار منا وتكسو.

وكان هذا الكلام للأكابر وقد اجتمع البادى والحاضر ، وأبو حميد المفتن فيما بينهم حاضر ، فأدرك بهذا العمل أن الأسد شعر بشىء من جهة الجمل ، فاستدرك فارطه وسلك سبيل المغالطة ، ثم اختلى بالأسد ولم يكن معهما أحد ، وقال : كأن مولانا الملك وقاه الله شر المنهمك ، أحس بشىء أوجب تقرير كلامه لطائفة جنده وخدامه ، وأنا عندى كلام لم يطلع عليه أحد من الأنام ، ولم أبده للملك بحضرة الجماعة ؛ لأنه ربما لا يقصد الملك به الإذاعة ، ولا يمكننى إخفاؤه وقد كان إبداؤه .

فاعلم أيها الملك الهمام كفاك الله شر اللئام ، أنه كما يستحقر العالِمُ الجاهل ، كذلك يزدرى الجَاهلُ العاقلَ ، وذلك لقصور فهمه وعدم علمه ، ومهما أحاط الخادم بمرتبة مخدومه ، وزاد علو قدره فى معلومه ، ازداد فى قلبه وجوارحه مقدار تعظيمه ، واستقرت هيبته فى قلبه وروحه ، وصارت كؤس خشيته تتادمه فى غبوقه وصبوحه[2] ، وقد قال رب الأرض والسماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] . وقول النبى عليه الصلاة والسلام : ((أنا أعرفكم بالله وأخشاكم لله))[3] . إشارة إلى هذا المقام ، وكلما ضعفت معرفة الخادم بالمخدوم ، قلت قيمته عنده وهذا أمر معلوم .

---

(١) تعالج .

(٢) ما يشرب فى الصباح والمساء .

(٣) قال العجلونى فى كشف الخفا (٢٠٠/١) قال فى المقاصد : قال شيخنا : صحيح ، وقد ترجم البخارى فى صحيحه بقوله صلى الله عليه وسلم : ((أنا أعلمكم بالله)) وأورد فى الباب عن عائشة قالت : ((.....إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)) .

ثم اعلم يا ملكا أعظم أن الجمل الطويل الأمل ، قد اغتر بالملك حين كان فى ذرى أمنه سلك ، وأحسن إليه غاية الإحسان وصار فى عدم الوفاء كالإنسان ، وحصل له من صورة غضبه الأمان ، فجهل قدره ، وتعدى طوره، وقد قيل :

إذَا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وإنْ أنت أكْرمتَ اللَّئيمَ تَمَرَّدَا
فَوضْعُ النَّدى فى موضِعِ السّيْفِ بالعُلى مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضِعُ النَّدَى

وقال الله تعالى ﴿إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى * أن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦] وكل نفس لا تحتمل الجميل وحوصلة العصفور لا تسع لقمة الفيل ، وناهيك ما قد قيل فى الأقاويل عن حماقة كل طويل ، فلا جرم ، فسد دماغه حين حصل فراغه ، وتطاولت نفسه فى مسراها إلى أشياء لا يمكن إفشاها ولا يتفوه بها مسلم ولا يرضاها ؛ لان ذكرها قبيح والكناية أبلغ من التصريح .

فلما سمع الأسد هذا المقال علم ببديهة العقل أنه زور ومحال ، ثم أرسل إلى الغراب وذكر له هذا الخطاب ، ليميز خطأه من الصواب ، ويبين القشر من اللباب ، فلما أتى الغراب إلى حضرته وجلا صورة هذا القول على مرآة فكرته ، قال له : ضميرك المبارك فى حل هذا المشكل لا يشارك ، فإنه حلال المشكلات موضح المعضلات ، وأما أنا فلا أسمع هذا الكلام ولا أقبل فى الجمل الملام ، فإنى أعرف تواضعه ومسكنته ، وصبره وطاعته ، وإخلاصه وقناعته ، وأنه صادق فى محبته مخلص فى عبوديته ، وأعرف أن خوفه من الملك غالب على رجائه ، وأنه مع ذلك مقيم على سنن وفائه وعقود عهوده وصفائه ، ولو أراد الذهاب لذهب بسلام ، ولا فى وظيفته قيد ولا فى وتيرته خُطَام(١) .

---

(١) الخطام ، مفردها خطم : حبل يجعل فى عنق البعير ويثنى فى خطمه ، والوتيرة : جزء من الأنف .

ثم قال الغراب : والغالب على ظن ذوى اللب أن هذه الفتن أَصلُّها وأصلاها الذب ؛ لأنه قد تقرر وتحقق واتفق كل حكيم موفق ، أنه إذا نقل ناقل محمق عن عاقل ابتدأ بالإحسان إساءة فلا يصدق ، فالملك لا يبادر فى هذه القضية حتى يتبصر الأمر عن جلية ، وحاشاه أن يفرط فى خدمة المخلصين ، من غير أن يتدبر أمورهم بيقين ، ويختلى بعبده الجمل ، ويتحقق منه أصل هذا العمل ، بعد استجلاب خاطره وتطييب سرائره وضمائره.

فاستصوب الأسد هذا الفصل ، واختلى بالجمل ليقف منه على هذا الأصل ، وسكن جاشه ، وأزال بلطيف الكلام استيحاشه ، وشكر فى خدمته مساعيه ، وطلب بملاطفته مراضيه ، ثم طلب من الجمل تفصيل ما بلغه من جُمل ، وأكد قوله بالإيمان أنه لو صدر منه تقصير ونقصان ، ولو كان مهما كان ، فإنه قد عفا عما هفا ، ولا يكدر من عيشه ما صفا ، ولا يمزق رقيق حاشية وفائه بالجفا ، ولا يتقيد بهفواته ولا يطالبه أبدا بزلاته ، فليطلعه على جلية الحال وليذكر ما وقع منه من أقوال وأفعال .

فافتكر الجمل فى معاهدته مع الدب وأنه لا يفشى سر ذلك العديم اللُّب ، وكيف ينقذه من غضى جمر[1] شبَّ وقضاء غمرة صب[2] .

فقال : إن قلت أضعت صاحبى ، وإن سكت قصرت فى جانبى ، ثم اختار كتم الأسرار ، وسلك طريق الأحرار ، والوفاء بالعقود ، وعدم نكث العهود ، وقال : أسعد الله مولانا الذى بوجوده أحيانا ، إنى أتفكر فى عواقب الأمور ، وانظر فى تقلبات الدهور ، وأخشى سطوات السلطان ، وأخاف من حوادث الزمان ، فلا أزال من هذا الخيال فى انتحال وهزال ؛ إلى أن صرت إلى هذا الحال ، فإن كان هذا ذنبا يوجب العقوبة فإن إزالته عن خاطرى فيها صعوبة ، وهذه أوهام لا يمكن دفعها ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] .

---

(١) الغضى : شجر خشبه من أصلب الخشب ، لا ينطفىء بسهولة .

(٢) شدة العشق .

قال الأسد : فهل اطلعت على ما يوجب ذلك ، أو يدل على الإلقاء فى المهالك ، وتضييق المسالك من حركات أفعالى أو من فلتات أقوالى ، أو تقلبات أحوالى ، أو نقل إليك ناقل من جاهل أو عاقل ، فأفحم الجمل عن الجواب ، وأطرق فلم ينطق بخطأ أو صواب .

فقال الغراب : لا ينجيك الا الصدق ، وكشف أستار الريب عن جبين الحق ، وكان حاضر هذه الفحوى خُلْدٌ أعمى ، وهم عنه غافلون وعن استماعه ذاهلون ، ففى الحال توجه إلى الدب وقال : صورة ما جرى بتخيير المشترى ، فعلم الدب أنه افتضح وأمره اتضح ، فنهض وما قعد ودخل على الأسد ، ، فرأى الجمل مطرقا لا يلوك منطقا ، فمد صولجان اللسان وخطف كرة البيان ، وسابق بالكلام خوفا من الملام .

وقال بلسان طلق كلام فاجر مختلق: اعلم أيها الطويل الأبلم ، أنك لو أمسكت عن كلامك القبيح فى وقتك الفسيح ، لكان أصوب، وأحسن وأعجب ، لكن لما فهت بالعِبَر وأتيت بإحدى الكِبَر وصادمت القضاء والقدر ، وخنت ولى نعمتك وقصدت إهلاك الملك ، بقبح شيمتك ، أزال الله سترك وأبدى أمرك وفضحك وقبحك ، وبلجام الخزى كبحك ، لا جرم جرمك حبسك وإثمك العظيم أخرسك.

فأبهت الضرغام من هذا الكلام ، وشاب الغراب من هذا الأمر المشاب، ووقعوا فى الاضطراب والشك والارتياب ، واشتبه الخطأ بالصواب وقالوا : إن هذا لشىء عجاب ، فقال الجمل للدب : يا فقيد اللب يا قليل النِّصقَة ، وعديم المعرفة ، وأنحس أفَّاك وأنجس سفاك ، وأبخس بتاك[1] ، أتظننى خائفا من كلامك وخطابك ، عاجزا من ملامك وجوابك ، أما كفى أنى قصدت ستر

(١) بتاك : صيغة مبالغة من بتك بمعنى قطع ، والمراد بالبتاك : الذى يوقع الفتن بين الأصحاب فيقطعهم .

عِوَارك[1] ، وإطفاء نارك ، ومفتكِرٌ فى تلاقى قضيتك ، وإخماد لهيب فتنتك ، وإهماد شرار مصيبتك وعلى تقدير التسليم ، وإنى فهت بالكبر والأمر العظيم، أكنت معك منفردا أم رأيت بيننا أحدا ، فإن كان بيننا أحد فاحضره إلى حضرة الأسد ، فإنى أرضى به وبما بين ، ولا دافع لى فيما يشهد به ولا مطعن ، وإن كنت أنت وحدك فما منعك عن نصح الملك وصدك ، فأنت إذا إما خائن وإما مائن[2] ، وهذا أمر محقق بائن ، ولولا أيمانى التى ربطت بها لسانى لكنت أظهرت البرىء والجانى ، ولكن تحليفى إلى الكتم والسكوت ألجانى ، وسيظهر الله الحق ويفصل ، وللباطل صولة ثم يضمحل ، والله ما لك مثل مع المسكين الجمل ، إلا امرأة النجار لما أغلقت باب الدار ، قال أبو الحارث الغضوب : أخبرنا يا أبا أيوب كيف كان هذا الحديث ، لنطلع على هذا الفعل الخبيث .

[٧٣] **قال** : ذكر رواة الأخبار أنه كان رجل نجار ، له زوجة تخجل الأقمار ، وتكسف شمس النهار ، كأنها الدنيا تخدع بملامح صورتها ، وتصرع بروائح سيرتها ، فكانت كلما رقد زوجها وهو تعبان انسابت إلى الأخدان انسياب الثعبان ، فتقضى الليل بانشراح ، فى عناق وشرب راح[3] ، إلى أن ينفجر الصباح ، ثم تنثنى عائدة فلا يستيقظ الزوج إلا وهى عنده راقدة، فطن فى بعض الأوقات لفعلها ، وراقب ليلة خيال ختلها ، فتراقد فى الفراش وذهبت لطلب المعاش ، فنهض وراءها النجار ، وأوصد لما خرجت باب الدار ، واستمرت هى وصاحبها ، وزوجها مستيقظ يراقبها ، فلما عادت راجعة وجدت الأبواب مانعة ، فطرقت الباب من غير اكتراث واكتئاب ، فناداها يا خائنة اذهبى حيث كنت كامنة ، فقالت : استر هذه الذنوب فإنى من بعد أتوب ، فقال لها : لا والله الرحمن حتى تُفضحى بين الجيران ، فقالت :

---

(١) معايبك .
(٢) كاذب .
(٣) الخمر .

الموت أهون من الفضيحة فاغفر لى هذه القبيحة ، وأنا أحلف يا ودود بالله الرب المعبود ، أنى أتوب ولا أعود ، ثم ألحت عليه وتضرعت لديه ، فلم يفتح لها بابا ولا رد عليها جوابا .

فقالت : والله اللطيف الخبير ، لئن لم تفتح الباب لألقين نفسى فى هذا البير ، ولأرمينك بقتيل بين الحقير والجليل ، ثم عمدت إلى حجر كبير وطرحته فى تلك البير .

ثم اختفت عند الباب ، لتنظر ما يبرزه القضاء من الحجاب ، فلما سمع زوجها خبطة الحجر تصور أنها تلك البغى فابتدر ، وفتح الباب وإلى نحو البئر طفر ، ولم يشك أن تلك البغى ألقت نفسها فى الطَّوِىّ ، فما وصل إلى البير ذلك الرجل الغرير ، إلا وقد دخلت وفى وسط الدار حصلت ، ثم أوصدت الباب واستغاثت بالجيران والأصحاب ، وأحكمت الرَّتَاج[1] وأوقدت السراج ، وملأت الدنيا بالعياط ، وأخذت فى الهياط والمياط[2] ، فاجتمع الجيران ، لينظروا ما هذا الشان ، فقالت : هذا الرجل الظلام يتركنى كل ليلة حتى أنام ، ثم يتوجه إلى الزوانى ، ويدعنى أقاسى القلق وأعانى ، وأتقلب فى أرقى وأشجانى ، فأخذ الرجل يحلف بالله ذى الجلال ويذكر للحاضرين حقيقة الحال ، فتارة يصدق وأخرى يكذب ، وهو بين مصدق منهم ومكذب ، فلم يزالا فى عويل وصياح إلى أن ظهر تباشير الصباح ، فحضرا إلى القاضى واختصما ، وشهد بعفة الرجل الصلحاء والعلما ، وأظهر الله الحق ، وثبت على المرأة الخيانة والفسق ، ولولا ذلك لذهب البرىء غلطا ، وانقلب صواب المحق الصادق خطا .

---

(١) ما يغلق به الباب (القفل) .

(٢) يقال : هم فى هياط ومياط ، أى فى اضطراب وذهاب وجلبة وشر .

وإنما أوردت هذا المثل ؛ لتعلم أيها الملك البطل خيانة الدب وبراءة الجمل ، والرجل إذا عجز عن فعل الشجعان يتشبث بحبائل الشيطان ، ويستعمل مكر النسوان ، ونظير هذا الكياد ما وقع بين صادق دمشق وفاسق بغداد ، وهى قضايا جليلة الأبواب طويلة الذيول والأذناب ، قد دونت فى مجلدة لا يسعها هذا الكتاب .

ففكر الريبال فى هذه الأحوال ، ثم أمر بهما إلى الاعتقال ، وكان للملك سجان ذكى ، كنيته أبو الحصين واسمه ذكى ، فتسلمهما واحتفظ بهما .

فلما استقرا فى قبضة الحبس واستمر أمرهما فى تحت أذيال اللبس ، توجهت الفارة التى كانت سمعت سر مناجاتهما ، واطلعت من أول الأمر على حكاياتهما إلى السجان ، وهما فى أضيق مكان ، وسألته عماذا آل عليه أمرهما من شان ، فأخبرها بحالهما وجهل عاقبة مآلهما ، وأنه ليس بعالم من المظلوم منهما والظالم .

فقالت الفارة : أسألك ياذا الشطارة والذكاء والمهارة إذا ترجح لأحدهما الجانب ، وتبين الصادق والكاذب ، وتعين المرضى عنه والمغضوب ؛ عليه تطلعنى على ذلك لأنظر إليه ، قال السجان للفارة : لقد فهمت عنك بالإشارة وأدركت من فحوى العبارة ، أن لك إطلاعا على هذا الأمر ، وفرقا جليا بين تمره والجمر ، فإن كنت شممت من ذلك روائح ، فبادرى بأداء تلك النصائح، فإن قولك مقبول ، ولك الفضل لا الفضول ، ولا تقصدى بهذا الإرشاد إلا مصلحة العباد ، وكشف الغمة وبراءة الذمة ، وردع الظالم ، وخلاص ذمة الحاكم .

قالت الفارة : وأنا لا أقصد إلا إصلاح ذات البين ، وشمولهما بعاطفة الملك بحيث يصيران كالمحبين ، ويرتفع النكد ويحصل رضا الأسد ، ويحسم

الضرر والضير وتختم عاقبتها بخير ، وأيضا فإنى سمعت من العلماء ، وضبطت من نصائح الحكماء ، ومقالات ذوى الآراء أنهم قالوا : إياك والتكلم فى أمور الملك ببيضاء أو سوداء ، وأين بنت الجرذ من ملك الوحوش الأسد.

قال السجان : لا تقولى ذاك ولا تستحقرى جدواك ، وما ترين فى فتواك ودونك القول الصادر من نظم الشاعر الماهر ، وهو :

لا تَحْقِرَنَّ الرأىَ وهو مُوافِقٌ حُكْمَ الصَّوابِ إذَا أَتَى من نَاقِصِ
فَالدُّرُّ وهو أَجَلُّ شئٍ يُقْتَنَى ما حَطَّ قِيْمَتَه هوانُ الغَائِصِ

وإن النصيحة كالعسل ، والحق يصدع كالأسل[1] ، فالعسل يعطى حلاوة ذوقه سواء كان فى صحاف الذهب أو فى زِقّه[2] ، وقاصد الصواب والنصيحة ومن أغراضه لدفع الفساد صحيحة ، يخاطر بنفسه وماله ويراقب ما فيه حسن مآله ، وأفضل المعروف إغاثة الملهوف ، سمعت فى المثل السائر : ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر))[3] ، وهذا الطور عند ملوك الجور ، فكيف وملكنا أعدل الحكام وناصر دين الإسلام ، متصف بمكارم الأخلاق والشيم ، ومعاملة الكبير والصغير بالمراحم والكرم ، فإن كنت تدرين بجهة الانتفاع ، أو لك على قضايا الدب والجمل اطلاع ، فقومى وانصحى وقولى تفلحى ، كما فعل الوزير المنتخب مع كسرى فى حالة الغضب ، فسألت الفارة هذا المثل وأخباره .

---

(١) الرمح الشديد .

(٢) قربة .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود : كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى (٤٣٤٤) بلفظ : ((كلمة عدل)) . والترمذى : كتاب الفتن ، باب ما جاء أفضل الجهاد ...(٢١٧٤) ، بلفظ : ((إن من أ عظم الجهاد كلمة عدل)) .

[٧٤] **قال أبو الحصين السجان** : ذكر أنه كان لأنوشروان زوجة ، فاقت النسوان ، يخجل قدها الأغصان وخدها البدر حيث لا نقصان ، كان أبوها من السلاطين وملوك الأساطين ، وكان أنوشروان قتل أباها وأخاها ، واتخذها لنفسه واصطفاها ، وكان مشغوفا بحبها متخوفا من قربها ؛ لئلا تتذكر قتيليها ، فيستولى طلب الثأر عليها ، فلم يزل متحرزا من أفعالها مراقبا تقلب أحوالها ، فاتفق أنه كان جالسا معها على السرير ، وحولهما من الجوارى الحسان ، كل بدر منير وظبى غرير ، فتاقت نفسه إليها فمد يده ووضعها عليها ، فنظرت إلى الجوارى فرأت أعينهن إليها ناظرة ، فصارت بين طرفى الانقياد والامتناع حائرة ، وكانت قد سمعت من أبيها ما رأته من أقاربها وذويها ، معنى ما قيل :

وإنّى لأستَحِى منَ النَّرْجِسِ الذى ... يراقبُنَا أنّى أُقَبِّلُ مَنْ أهْوَى

فخطر ببالها أنه إذا استحيا من عيون النرجس وهى جامدة ، فكيف لا أستحى من عيون إنسان فى مراقبتنا غير راقدة ، فغلبت عليها الحيرة ، وإن جدع الحلال أنف الغيرة فانكمشت من كسرى ، وزادها الحياء والهيبة انقباضا وكسرا ، فجذبها بقوته إليه فانفلت منه لما استعصت عليه ، فوقع عن سريره العالى وعلا حلقه التمر الغالى ، وتبسم بعض تلك الجوارى ، من غير اختيار فاضطرب لما اضطرم فيه النار ، وتذكر ما كان توهمه من أخذ الثار ، وفار دم قلبه لما غار ، فدعا وزيره الكبير ودفع إليه ربة السرير ، وأمره بإزهاق نفسها وإسكانها فى رمسها ، من غير مراجعة ولا شفاعة ولا مدافعة .

فحملها إلى منزله ووقع فى صعب الأمر ومشكله ، ولم ير بدا من إمضاء مرسومه ، وامتثال أوامر مخدومه ، ثم تدبر فى المآل ونادته ربة الحِجَال(١) : مهلا أيها الوزير الناصح المشير ، ذو الرأى والتدبير ، هَبْنِى أنى

---

(١) الحجال : بيت يزين للعروس ، وربة الحجال صاحبته .

أخطأت وعن مرضاة الملك أبطأت ، فما ذنب الذى فى بطنى المودع من الملك ولم يجنى ، فلا بأس أنك تستشيره ، فإنك ناصحه ومشيره ، وإن كان لابد من قتلى ، واستقر الرأى على نبلى وبتلى[١] ، فاستمهله إلى أن أضع ، ثم تهلك الأم وتبقى التبع ، فإنه كان يعطى النذور والأموال ويطلب الولد فى ظلمات الليال ، ويدعو بذلك ربه ذا الجلال ، فعرض الوزير على الملك ذلك فأبى، واستعمل فى ضروب ضربه أَحَدَّ عبارة وترفَّق فَنَبَا[٢] ، فعرف أن أخلاقه ثائرة وأنه لابد أن تطفأ تلك النائرة ، فإذا برد قلبه وهمد كربه ، يطالبه بالفرع إن لم يطلب الأصل ، وبعد القطع لا يمكن الوصل كما قيل :

طَوَى الموتُ ما بينِى وبينَ أحِبَّتى ... وليسَ لما تَطْوى المنية ناشرُ

فرأى الوزير الرأى فى التأخير ، فأودعها عند الحريم وسلك فى الحزم الرأى القويم ، وجعل نفسه لها وقاية إلى أن أخذت مدتها النهاية ، فوضعت ولدا ذكراً أغصن بانٍ مثمرا قمرا ، فقام الوزير بتربيته وإصلاح رضاعه وأغذيته ، إلى أن بلغ سبع سنين ، وهو كبَدْرِ الأفق المبين مربى بالدلال ، مغذى بالكمال فكأنه فيه قيل :

جَبينٌ تَحارُ الشمس من لَمَعَانه ... وقَد يَغَارُ الغصنُ من حَرَكاتهِ
وخذ تعالى الله لستُ مُشَبِّهاً ... ولا مُشْركاً أضْدادَه فى صفاتهِ
رَمَى مُهْجَةَ المُضنَى بأسْهُم لَحظِهِ ... فنَام عَليلاً وهو فى سكَرَاته

فركب كسرى فى بعض الأوقات ، وخرج يصطاد فى بعض الجهات ، فتبدد العسكر وصار كالحجيج إذا نفر ، ووقع كسرى فى ناحية عن العسكر منفردا ، فصادف غزالين يسوقان ولدا ، ويذكر أن فى ذلك القاع ما قاله عدى ابن الرقاع[٣] :

---

(١) ضربنى بالنبال ، وقطع رقبتى ، أى هلاكى .
(٢) أى سبه بأقذع الشتائم .
(٣) عدى بن الرقاع ، العاملى الشاعر ، مدح الوليد بن عبد الملك ، وهاجى جرير وكان آية فى الشعر . سير أعلام النبلاء (٦٧١) .

تُزْجِى أغَنَّ كَأن إبْرةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصَابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَها

فهجم عليهما ودنا إليهما ، فلما قصدهما تركا ولدهما ، ففوّق السهم الخفيف ، نحو الحَشَف الضعيف[1] ، فلما رأت أمه السهم ، داخلها الوله والوهم ، فقصدت للسهم دون ولدها واستقبلت نصل كبد القوس بكبدها فأراد إطلاق السهم من الكبد ، ليصيب به نحر أم الولد ، فاعترضه الفحل بصدره ، وتلقاه دون نحرها بنحره ، وجعل نفسه وقايةً لأم ولده ، وفداهما بروحه وجسده ، فتذكر كسرى ولده وأمه وضاعف حزنه عليهما همه وغمه ، وتذكر ما سلف منه فى حق زوجته ، وما عاملها به حين وقع به من الغضب فى سورته ، وتأمل ما قالته فى حق قرة مهجته ، وما أجاب فى ذلك ، إلى أن وردت إلى المهالك .

وقال : إذا كان هذا الحيوان ، الباغم المائق حمى حقيقته[2] برمحه كحماة الحقائق ، فلم لم يفعل ذلك الحيوان الناطق ، ثم فاضت دموع عينيه ، فرمى القوس والسهم من يديه ، ورجع متفكرا وعلى ما فرط منه متحسرا ، ودعا الوزير الناصح المجير والمستجير ، وذكر له ذلك النكد وما رآه من الغزالين والولد ، وتحرق على فقد حظيته وتألم لمصاب فلذة كبدته ، فدعا له الوزير ، وقال : الصبر نعم النصير كان قد سبق منى إشارة ، ولكن المفرط أولى بالخسارة ، الصديق الصادق ، والرفيق الموافق ، يقول : ما أصنع نصحت فلم يسمع ، والخبيث المنافق والحسود المماذق[3] ، يقول : أردت أن أقول ولكن تركت الفضول ، ولا حيلة للملك والوزير ، فيما جرى به قلم التقدير ، ثم دعا له وانصرف : وعبّى حِمْلا من الهدايا والتحف ، وألبس ابن الملك أفخر ملبوس ، وجهز أمه كما تجهز العروس ، وأضاف إلى ذلك من المراكب الملوكية والخدمات السلطانية ، وأقبل بهما إليه وعرض كل ذلك عليه .

---

(١) الضرع الضعيف اللبن .

(٢) زوجته .

(٣) الخائن .

وقال : يا ملك الزمان أنا رأيت هذا اليوم فى ذلك الأوان ، وعلمت أن الندم سيعم من الرأس إلى القدم ، وها قد قدمت إليك من التحف الدُّرُّ مع الصدف ، والورد والزهر ، والغصن والتمر ، والفرع والشجر والشمس والقمر ، مَتَّعَكَ الله بهما ومتَّعَهُما بك ، وحرس من الأسواء منيع حرمك وجنابك ، فانجبر بذلك كسرى ، ونال بشرى ويسرى وطاب سيرا ومسرى ، وسر صدره وانشرح ، وأغمى عليه من شدة الفرح وأنشد :

طَفَحَ السرورُ علىَّ حتى أنه ... من عِظَم ما قد سَرَّنى أبكانى
يا عَيْنُ قد صار البُكَا لك عادة ... تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ ومِنْ أَحْزَان

ثم أمر ببساط السرور ، وجلس فى النشاط والحبور ، وأنشد :

أهلا وسهلا بالتى ... جادت علىَّ بمُهجتى
أهلا بها وبوصلها ... من بعد طول الهجرَةِ
أدر المدام وغننى ... أهلاً وسَهْلاً بالَّتِى

ثم أفاض خلع الإنعام والرضا والإكرام على الوزير ، وشكر له حسن التدبير ، وارتفعت عنده منزلته وتضاعفت فى الارتقاء مرتبته .

وإنما أوردت هذه الأمثال ؛ لتحذى على هذا المثال ، فإن كان عندك ما يزيل الشك والأغاليط ، ويحق الحق ويميز الأخاليط ، فإن فى إبدائها منة عظيمة ، ونعمة على الملك جسيمة ستبلغنى بذلك العيش الهنى ، وترقينى به إلى المقام السمى السنى ، وإن أخرت النصيحة ، فقد شاركت الخائن فى الأفعال القبيحة .

قالت الفارة : ما أدق ما نظرت وأحق ما أشرت ، لا تردد للعقل فى صحة هذا النقل، ولكن من أنا فى الرُّفْعَة ، ومن يقبل للفارة حتى تطلب الرفعة، فلا أنا فى العير ، ولا فى النفير ، وإنى من مبدأ أمرى وطول عمرى

فى زوايا الخمول ، أتحرز من فضلات الفضول ، لا لصحبة الملوك لى صورة جميلة ، ولا فى طريقة السلوك سيرة نبيلة ، لا أمينة ولا ثقة ، وأصدق أسمائى الفويسقة ، فكيف أصير مصدقة ، وقد أباح سيد العرب والعجم ، معدن اللطف والكرم ، والمبعوث بمكارم الأخلاق والشيم ، صلى الله عليه وسلم قتلى فى الحِلّ والحرم ، فلو طلبت مصاحبة من فوقى لخرجت عن دائرة طوقى ، وصيرت نفسى ضحكة للناظرين ، وهزأة للساخرين ، خصوصا ملك الأسود ، وسلطان الوحوش من النمور والفهود ، ورحم الله امرأ عرف قدره ، ولم يتعد طوره ، ومن أعجب العجب أن يجنى من الشوك العنب ، ولو فعلت ذلك لكنت كقرد حالك ، ذميم هالك ، ادعى رياسة المماليك ، ومن أحسن الأمثال ما يقال إن السلطان للأنام بمنزلة الحِمَام، البعيد عنه يطلب قربه والداخل فيه يشكو كربه ، فالأليق بحالى أن لا أشغل بالى الخالى ، بما لا يليق بى ولا بأمثالى وحيث أشرت على بأداء النصيحة ، وبيان الحالة الفاسدة من الصحيحة ، طلبا لمرضاة الملك وصونا لخاطره عن الأمر المشتبه المشتبك ، والفكر المريب المرتبك ، فأنا أمتثل مرسومك وأودع ذلك معلومك بشرط أن لا تذكرنى بشفة ، ولا تشير إلى اسمى بنكرة ولا معرفة ، فعاهدها على ما اشترطت فمدت لسان القول وبسطت .

ثم ذكرت ما جرى بين الدب والجمل من فصول ، وقررت براءة ساحة الجمل بالمعقول والمنقول .

فلما اتضح لأبى الحصين السجان نزاهة عِرض الجمل ، وأن الدب هو الذى أغراه على قصد الأسد وحمل ، وتحقق ذلك بالبرهان القاطع والدليل الساطع ؛ توجه إلى حضرة الأسد ، وأخبره بما صلح من الأمر وما فسد ، وأنه إنما تأخر عن خدمة مخدومه ، ليصل إلى ما فى جيب الغيب من

مكتومه، فلما تحقق الليث ما فى هذا الأمر من صلاح وعيث ومن هو الصالح، من الدب والجمل والطالح ، أرسل إلى الغراب ، وعرض عليه هذا الأمر العجاب، وطلب منه الإرشاد ، إلى هدم ما بناه الدب من الإيقاع وشاد .

فقال : الرأى عندى أن تجمع العساكر ، وتنادى للبادى والحاضر ، ويحضر الدب والجمل ، ويعرض على الجميع هذا العمل ، فإذا ظهر الحق وانكشف سجاف الباطل[1] عن جبين الصدق ، وتبين الظالم من المظلوم وتعين الصحيح من المثلوم[2] ، يرى رأيك السعيد ما يقتضيه ويسلك ما يأمر به ويرتضيه ، ويجرى على كل منهما ما يحكم بتنفيذه ويمضيه، بحيث لا ينتطح فى ذلك عنزان ، ولا يختلف عليك فيه اثنان .

فلما كان ثانى يوم أمر الأسد بجمع القوم ، وإحضار الجمل البرى والدب المفترى ، فحضر الكبير والصغير واجتمع الأمير والوزير ، ثم علا الملك على السرير ، وأثنى على الله العلى الكبير ، وصلى على البشير النذير الشاهد السراج المنير ، ثم ذكر ما أهمه من هذه القضية المغمة وذكر فضل هذه وما لها من رقة وجلالة ، وأنها لا تجتمع على ضلالة، ثم قال : ما تقولون فى رفيقين شقيقين صديقين لم يكن بينهما سبب مكالحة ، ولا موجب منازعة ولا مجاملة ، سوى المحبة المليحة والممالحة والمودة الصافية الصالحة ، يبيتان فى فراش ويستعينان على حسن المعاش ، حسد أحدهما رفيقه وخان من غير سبب صديقه، وسعى فى إراقة دمه وعدم وجوده بوجود عدمه ، فماذا يجب على هذا الحاسد المنافق فى عمله الفاسد ، الطالب ترويج باطله الكاسد ، وقصده ذلك البرى الصالح الغافل السرى ، والسعى به إلى الحكام وإلقائهم بسببه فى الآثام ، وارتكاب هذه الجرائم وتحمل مثل هذه

---

(١) سجاف : ستر .

(٢) الفاسد .

العظائم ، فأجاب الجمهور إن من أكبر الكبائر قول الزور ، وقد قال رب الكائنات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا والأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣] .

وإن مرتكبه الأثيم استوجب العذاب الأليم ، ومن هو هذا الجرى الكذاب المفترى ، الذى يرتكب مثل هذه الأمور الهائلة ، والكبائر الوخيمة القاتلة ، والعظائم المؤذية الغائلة ؛ خصوصا فى مثل هذه الدولة العادلة ، ولأى شىء يؤخر جزاؤه ولا يحسم داؤه ، ولا يضرب ولا يشهر ولا يؤمر بالمعروف فى هذا المنكر .

قال الأسد : فاكتبوا بما قلتم محاضر وليعلم الغائب الحاضر ، حتى إذا وقع الاتفاق بين الأصحاب والرفاق ، وارتفع فى ذلك النزاع والشقاق ، وأجمع على ذلك العقل والسمع ، فعلنا فيه ما يقتضى السياسة والشرع . فاتبعوا شروطهم ، وكتبوا بذلك خطوطهم ، فعند ذلك طلب الأسد أم راشد وأقامها فى ذلك المحفل الحاشد ، واستنطقها بما تعلم واستشهدها على الدب بما أجرم . فشهدت فى وجهه بما سمعت ، ورقمت بذلك خطها ووضعت ، وزكاها الحاضرون ، وشهد بعفتها وزهدها الناظرون واتفقت الكلمة ، من الكملة على صدقها وحقيقة نطقها ، فتهلل وجه الجمل بهذا القول وانعمل، وظهرت على صفحات وجه الدب ، العديم الدين واللب ، علامة الانكسار والفضيحة والخسار ، ولم يسعه إلا أنه أذعن واعترف أن لا دافع له فى الشاهد ولا مطعن ، وأنه قد اجترم ، وطلب العفو والكرم .

فعند ذلك غضب الريبال ولم يبق للعفو مجال ، فزأر وزفر وغضب الغضنفر وهمر وزمجر ، وتطاير من أشداقه الزبد ومن عينيه الشرر ، ومن شمائل حركاته ممضيات القضاء والقدر ، ونعوذ بالله من غضب الملوك خصوصا على الفقير الصعلوك ، ومن أحاطت به أوزاره ، وقلت أعوانه

وتنيت أنصاره ، ثم أمر الأسد بالدب أن يلقى من البلاء فى جب ، وأن السباع تحتوشه والضباع تنوشه ، ففى الحال من غير إهمال ولا توان ولا إمهال ، نهشته الذئاب ، وافترسته الكلاب ، وتخاطفته النمور ، وتناتفته الببور ، والتقمته السباع ، والتهمته الضباع ، فقطعوه وبضعوه ، ووزعوه ومزعوه ، وخزقوه وحزقوه ، وخرقوه ومزقوه ، ولم يكتفوا بعظمه وإهابه ، حتى لحسوا من دمه يابس ترابه ، وكان قد اشتد بهم القرم ، فاطفؤا بلحمه ودمه بعض الضرم ، وزال عن أبى أيوب الضر ، وارتفعت منزلة ذلك الحر ، وضاعف الله تعالى عن براءة ساحته أنواع الحمد والشكر .

وفائدة هذا المثل الجارى بين الدب والجمل معرفة فضيلة الأمانة ، ووخامة المكر والخيانة ، فإن الله تعالى غير مضيع أهله ، ﴿**وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر:٤٣] كما قيل :

لأبناء هذا الدَّهْر فى الغدر أَسْهُم	وضَرْبٍ خياناتٍ وطَعْن مكيدةٍ
وما لِلْفتى منها طريقُ سلامَةٍ	سوى تِرْسُ تفويض لرب البرية
وكلُّ امرئٍ رهنٌ بنيته وفى	كَفَالَةِ ما يُنْوَى وما فى العقيدةِ

وليكن هذا آخر باب الأسد الصالح والجمل الأمين الناصح ، والعاقبة للمتقين والله الموفق والمعين .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خير الخلائق أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .